الملتقى الدولي السادس حول التصوف

الفكر والممارسات الصوفية في المجتمعات الإفريقية

جانت، الجزائر، أيّام 14، 15، 16، و17 ديسمبر 2009

شهد انتشار الإسلام في العالم طرقا ومناهج مختلفة باختلاف المجتمعات والأحقاب. وكان دخول مجتمعات بأكملها في الإسلام مبكّرا وتدريجيا أوّلا عن طريق الحرب ثمّ الدعوة. وحالة المجتمعات الإفريقية من أقصى شمال القارة إلى أقصى جنوبها لا تختلف عن حالة المجتمعات الأخرى التي اعتنقت الدين الجديد من حيث جوهر الدعوة إلى تلقي الرسالة القرآنية .

لكن وجه الاختلاف يكمن في التاريخ المتميّز لكلّ منطقة كبرى من مناطق القارة بل لكلّ مجتمع منها وكلّ ثقافة فيها. فعلا، كانت الدعوة في بداياتها تنحى مناحي حروب الفتوحات ثمّ طرق القوافل من شمال القارة إلى نهر السينيغال. كما تشهد بداية القرن العاشر مع ظهور الحركة المرابطية تحوّل وادي السينيغال فيما يخصّ شمال – غرب القارة إلى أندلس وتحوّل بلاد الساحل إلى غاية بحيرة التشاد والأداماوه إلى نقطة انتشار الإسلام ونشره شمال النهر وجنوبه.

وسيكون وادي النيل والسواحل الشرقية لأفريقيا مسالك الدين الجديد نحو السودان وأريتيريا والحبشة. كما ستكون الحيازة على شرق كينيا والساحل إلى غاية زنزبار بإنشاء مدن مينائيّة كمونباسة المعروفة بتعاملاتها التجاريّة مع الكثير من الدول عبر العالم بما فيها دول جنوب الخليج العربي بل حتّى الهنود المسلمين، بينما البلد الإفريقي الوحيد المستورد للعبيد- أي إفريقيا الجنوبية- كانت تأسر أثناء مواجهتها البحرية مع البرتغاليين في المحيط الهندي العديد من الأندونيسيين والماليزيين المسلمين المنقولين إلى الجزأ الجنوبي من القارة.

وإذا كان المحاربون الأوائل متبوعين بالرحّالة والمبشّرين والتجّار قد انتهجوا نفس الطرق في العالم الإسلامي المتوسّع فسيشهد الجزأ الشمالي – الغربي منذ أواخر القرن الثاني عشر نشأة حركة الطرق الدينية.

أصول التصوّف، نشأة وتطوّر الطرق الدينية في المجتمعات الإفريقيّة

كان يتوجّب على الطرق الأولى التي تأسّست بالشام وانتشرت بسرعة شمال القارّة إدراج جنوب الصحراء في دعوتها. وبدأت الطريقة الأولى التي أسّسها سيدي عبد القادر الجيلاني بالعراق في الانتشار

ويتغيّر وجه المقاومة وتنحى الطرق مناحي جديدة في بناء علاقات تتكيّف مع السلطة الاستعمارية. وستصبح حسب الاصطلاح الاستعماري «روح الثورات» على مدى القرن التاسع عشر بتحفيزها المجتمعات المستعمرة على مرور إلى المجابهة. وسينجم عن هذا ظهورالحركات الوطنية والتحرّرية التي أدّت إلى استقلال الشعوب وتنشئة الدول الوطنيّة، وتغيّر في وظيفة الطرق ودورها.

الطرق الصوفية «كظاهرة اجتماعية شاملة»

يستخلص من الأعمال التحليلية للطرق الدينية التي غالبا ما تأتي ضمن بحوث عبرمناهجيّة أو عابرة للتخصّصات أنّ الطرق الدينية تستعمل طريقتي التعبير والتنظيم الصوفيين. فلا يمكن أن يزدهر التصوّف العالم، الفردي والانفرادي إلاّ في فترات السلم والاستقرار. وعندها يكون هو المرجع، مرجع القيم الدينية الصوفية والمبادئ الأخلاقية الشاملة. وفي الفترات التي تكثر فيها الاضطرابات والغارات العسكرية والغزوات يأتي هذا النوع من المناهج استجابة لمنطقي الرسالة والدعوة إلى الله بتنظيم نشر الرسالة القرآنية أو حماية المجتمعات المسلمة من الغزاة المعروفين بإثمهم أو كفرهم. وبذلك يصبح التصوّف العالم والفردي الشرط الضروري لتنظيم الطريقة التي يجسّدها مرجع أعلى يدعى القطب أو الشيخ أو الحاج، وتصبح الطريقة مؤسّسة شاملة، أي منظّمة سياسية، دينية، ثقافية، إقتصادية واجتماعية. ومن ثمّة تؤول إلى ما كان يطلق عليه المروّجون الاستعماريّون الإمبراطوريات والسلطنات والإمارات القائمة في العواصم: فهكذا كان الحال بالنسبة لأمبراطورية المپول peulh بسوكوتو التي أسّسها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الشيخ عثمان دان فوديو، وأمبراطورية حاج عمر تال وهما الأكثر شيوعا. وهكذا يطغى الديني على السياسي والمقدّس على الدنيوي في تأسيس الدول والخلافات الوارثة للحقّ الإلهي.

أمّا الجانب الآخر، أي جانب الإحياء والإصلاح، حين تغلّبت الإدارة الاستعمارية وقسّمت الأمبراطوريّات والإمارات، فتجسّده مرجعيّات تعود إلى تصوّف روحاني إقتصادي واجتماعي حتّى ولو أنّ السياسي ليس ببعيد. وفي أواخر القرن التاسع عشر يؤسّس الشيخ أمادو بامبا على إثر انشقاق القادرية طريقة جديدة: الموردية. وفي بداية القرن العشرين، يعيد الخليفة الشيخ إبراهيم نياس تأسيس الطريقة التيجانية رابطا إيّاها بالأصول الروحية الأولى، ويفتح الشيخ حماه الله طريقته الخاصة – الحموية- انطلاقا من التيجانية...

طرق دينية ومؤسّسات

إنّ هذا المدّ والجزر بين تسيير الروحي والزمني يعكس منذ الأزل اغتراء السياسي بالديني أوالعكس. ولا يزال الإشكال مطروحا في أيّامنا مادامت الطريقة تتطابق مع الدولة والمجتمع دون أن يظهر في ذلك أيّ التباس أو غموض. وربّما كان هذا هو الباب الذي يسمح بإدراكها مجازيا ك»ظاهرة اجتماعية شاملة».

وفي القرن العشرين، يفرض التأثير الكولونيالي الساحق نوعا من الفصل بين الديني والسياسي قريبا من العلمانية في شكله الفرنسي أو التركي، بينما يكون التفاوض بين هذين النوعين من السلطة مستمرّا:

منذ القرن الرابع عشر. وفي نهاية هذا القرن وبداية القرن الخامس عشر، كانت تقوى الصوفيين وموقفهم المتميّز سببا في انتشار الطريقة القادرية. وكان محمّد بن عبد الكريم المغيلي، الفيلسوف الفقيه المتصوّف المولود في قبيلة مغيلة البربرية الزناتية بمنطقة مازونة (الجزائر) والمتكوّن بتلمسان والذي يروى أنّه بنى أوّل مسجد بأغاديس، قد نصح سلاطين كانو قبل أن يرجع إلى توات حيث يتوفّى ويدفن بقصر بوعلي. واستمرّت القادرية في التوسع عبر فرع كونتا التواتي في القرن الثامن عشر متبوعة بالتيجانية التي ظهرت إلى الوجود بقصر بوسمغون بالأطلس الصحراوي (الجزائر) التي أصبحت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين طريقة شبه عالمية. ومن هاتين الطريقتين الكبريين نشأ التصوف الإفريقي بتجلّياته وخصوصيّاته، وفي كلّ الساحل، ربطت الطرق الصوفية مناهج التصوّف التقليدي بتنشئة وتطوير مناهج ومذاهب وشعائر وطقوس جديدية. فمن الانشقاق إلى الانشطار ومن التلافق إلى التجديد، وصلت الطرق الأمّ إلى إنجاب طرق جديدة ك»الموردية» بالسنغال (القرن التاسع عشر) و»الهاملية» (القرن العشرين) اللتان أصبحتا اليوم مزدهرتين.

وفي شرق القارة وجنوبها كانت تركيا والهند المسلمة مصدرا تخصيبات جديدة إذ شملت الطريقتان الخلوتية والأحمدية السودان والساحل الجنوبي الشرقي ما عدا زنزبار التي قيت وفيّة لإباضية سلطنة عمّان. كما انتشرت الأحمدية المنبثقة من إحدى المستعمرات البريطانية في إفريقيا الأنغلوفونية بما فيها نيجيريا.

دور الطرق الدينية في مقاومة الاحتلال

كان للموجات الاستعمارية المتتالية منذ القرن السادس عشر، بدأ من تجارة الرقيق إلى غزو القارة بأكملها ما عدا إثيوبيا، آثارا وخيمة على حياة المجتمعات الإفريقية من الجزائر إلى الكاب ومن الهلال إلى الأطلسي. وهناك زمنان رئيسيان في مقاومة موجة الغزو: زمن المقاومة العسكرية من طرف الجماعات ذاتها باعتبارها جماعات مسلمة تليها الحرب المنظّمة المخطّطة التي كانت تشنّها الطرق باعتبارها حاملة للجهاد، أو بمعنى آخر، المرور من مقاومة قبلية إلى حرب شاملة تشنّها الطرق بقيادة شخصيات مرموقة هي المرجعيات الصوفية وأصحاب الطرق أمثال الأمير عبد القادر (القادرية) والحاج عمر تال (التيجانية) وساموري توره. وبعد إخماد نار المقاومة العسكرية والقضاء عليها، يلجأ الاستعمار الفرنسي والبريطاني إلى بناء مسالك الاتصال (من طرقات وسكك حديدية) موجّهة من الغرب إلى الشرق ومن الساحل الأطلسي إلى الداخل، بغية تسهيل التوغّل والسيطرة على السكّان واستنزاف الموارد المحليّة في اتّجاه المراسي و»العواصم الأمّ». ويترتّب عن ذلك نتائج في غاية الأهميّة:

قطع طرق القوافل القديمة والتي كانت لمدّة قرون وقرون طرق تواصل أفريقانية تسمح بتبادل السلع والأفكار والثقافات والمخطوطات وسبل التضامن والأخويّة الصوفية سواء داخل الطريقة الدينية الواحدة أوفيما بين الطرق. ويضحى شمال القارة معزولا عن جذوره وتنقّل الممتلكات والثقافات.

نموّ طرق جديدة منبثقة من الشمال ستصبح، بوتيرة أسرع ممّا كانت عليه قبل الاستعمار، طرقا ساحلية ، شرق إفريقية وجنوب إفريقية محضة. ولئن بقيت الروابط مع الأصول قائمة فإنّها ضعيفة.

وهنا كلّ الإمالات موجودة- إذ تدخل كلّ دولة، وأحيانا كلّ رئيس دولة- في نوع جديد من التفاوضات: فالسودان مرّت ممّا يدعى بالاشتراكية العلمية إلى دولة قائمة على الشريعة ووريثة النظام المهدي في حين نرى أنّ السينيغال وهو مجتمع مسلم، قد اختار لنفسه غداة الاستقلال رئيسا للجمهورية يدين بالمسيحية. وفيما بين الإثنين، نلاحظ أنّ للطرق الدينية تأثيرا نسبيا على مصائر المجتمعات وطبيعة الأنظمة السياسية.

من أجل نقد العمليات المعرفية الخاصة بالطرق الدينية والتصوف في إفريقيا

لقد جعلت الاحتلالات من الصحراء... قفرا خاليا يوم جعلت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تنساق إلى طرق اتّصالات جديدة غير طرق القوافل. وعليه أصبح الشمال الإفريقي من البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى غاية الساحل الأطلسي معزولا عن بيئتيه التاريخيتين الساحلية والصومالية في حين كانت مراسي إفريقيا الشرقية تصدّر إلى لندن أكثر ممّا تصدّره إلى اليمن أو شبه القارة الهندية أو عمّان. ولم يتمّ التأريخ لهاته القطيعات إلى حدّ الآن، فهو الثقب الأسود في ذاكرة المجتمعات الإفريقية من شمال وجنوب الصحراء وفي البحث العلمي على حدّ سواء.

فالدول والحكومات خاصّة تتصارع من أجل أبوّة الطرق الدينية غافلة أنّه لا وجود لهاته الأخيرة ما لم تكن متجذّرة في وظيفتها الأولى أي أن تكون عبرألسنية وعبرمجموعاتية وعبرإقليمية. ويبقى هذا الواقع التاريخي كذلك ثقبا أسودا في الذاكرة وفي البحث العلمي.

وبخصوص هذا الأخير وبعيدا عن الضرورة المطلقة في التعاون الدولي من أجل البحث والتكوين في البحث، الحال أنّ القراءة التي تتناول ماضي التصوّف وحاضره وتعابيره الطرقيّة لا تزال في الغالب مرهونة بقراءات القوّات العلمية المهيمنة: مفاهيم أو مفردات جوهرية في ثوب بديهيّات تصوّرية (فكريّة) تحول دون أيّ تقدّم فكري يسعى إلى معرفة الحدث الديني في المجتمعات الإفريقية خاصّة والمسلمة عامّة. وهكذا هو الحال بالنسبة للسلاسل والتراكمات الأيديولوجية كمجموعة « marabout, maraboutisme, saint, sainteté, confrérie, paganisme, obscurantisme, ... » الموروثة عن الإثنولوجيا الكولونيالية. فكيف يمكن لعلم إنساني (أنثربولوجيا أو إثنولوجيا) أن يكون كولونياليّا؟

والإشكالية الكبرى تكمن في وضعية علوم الإنسان والجهاز التصوّري التي توظّفه في فهم المجتمعات المسيطر عليها. فكيف يمكن حينئذ تصوّر علم شامل للإنسان داخل الخطاب العلمي السائد لكن داخل نسق تصوّرية (فكريّة) حُرّرت من الثقل الأديولوجي للهيمنة؟ وطرح هذه المعضلة من الأهداف الرئيسية التي يرمي إليها هذا الملتقى. ويكون مسعاه الثاني التفكير في الوسائل المؤسّساتية التي تكفل النقد العقلاني للمعطيات النظريّة، الإبستمولوجية والمنهجية القادمة في سياق علوم الإنسان كافّة.

أحمد بن نعوم